مقولتا "النفوذ المعنوي" و"المداهنة" في المنجز الباختيني–قراءة في كتاب شعرية دوستويفسكي

Moral Clout "and" Adulatory expressions in the Bakhtine Achievement –Read in the Dostoievski poetry book–

أ. منير لعداسي ‡

المشرف: أ. د.حياة أم السعد

تاريخ الاستلام: 2019-11-20 تاريخ القبـول:2020-01-15

ملخّص: تسعى هذه المقالة البحثية الوقوف على مصطلحي المداهنة والنفوذ المعنوي في المنجز الباختيني ودورهما المركزي في التفريق بين الرواية البوليفونية والرواية المونوفونية، إذ أن المداهنة والنفوذ المعنوي، التي يتسم بهما البطل، ينسجان جملة من العلاقات الشائكة مع سائر مكونات السرد الأخرى: كالسارد، والمؤلف والمسرود. كما تحاول في السياق نفسه إضاءة بعض المفاهيم الجزئية التي ظلت مهملة في المنجز الباختيني نتيجة اندراجها تحت المفاهيم الكبرى كالبوليفونية والحوارية.

كلمات مفتاحيّة: المداهنة، النفوذ المعنوي، البوليفونية، البطل.

Abstract : This paper seeks to reveal the terms flattery and moral influence in the achievement of Bakhtine, and their role in separating the polyphonic novel from the Monophonic novel. In the same context, we try to illuminate some of the partial concepts that have been neglected in the achievement of Bakhtine as a result of their inclusion under major concepts such as Polyphony and dialogisme.

Keywords: Flattery, moral influence, polyphony, hero

المقدّمة: لطالما رافق النقد العمل الإبداعي في مختلف الفترات. ليكون نص أدبي بعينه في كثير من الأحيان محط دراسات تسفر عن إنتاج نظريات أدبية ومفاهيم نقدية تُعد ميزة ومقاسا تقاس به أدبية أعمال كثيرة ،في مثل هذا السياق آثرنا الحديث عمّا قدمه الناقد وفيلسوف اللغة الروسي ميخائيل باختين /Mikhail Bakhtine الذي أفرز كما هائلا من المصطلحات والمفاهيم في معرض تحليله لروايات دوستويفسكي/ Dostoïevski وبحثه في

‡جامعة غردايّة – الجزائر، البريد الالكتروني: guebennasaid@gmail.com (المؤلّف المرسل).

قضايا الإبداع الفني في الأعمال الأدبية لهذا الروائي، تلك التي يرى فيها شيئا من الفرادة والخصوصية، ما جعله يصنفها بوصفها نوعا جديدا أطلق عليه الرواية البوليفونية/Le roman Polyphonique، واستطاع أن يطور من خلالها نظريته في مفهوم الحوارية.

لكن ما يلاحظ على بعض الأبحاث العربية التي تناولت أعمال باختين بالبحث والدراسة أنها كثيرا ما تركز على مسائل البوليفونية والحوارية والتعدد اللغوي والكرنفال ومفاهيم التيمة والتلفظ. إلا أن هنالك مفاهيم جزئية في الطرح التنظيري الباختيني يمكن أن تفتح كل منها حقلا دلاليا يحتاج للبحث والتقصي. كي لا تضيع هذه المفاهيم في ظل هيمنة المصطلحات الكبرى كالحوارية والبوليفونية.

ومن بين المصطلحات التي لفتت انتباهنا مصطلح االمداهنة /Flatterie والنفوذ المعنويInfluence moral اللذان ألحّ عليهما باختين عندما وضع محددات البطل في الرواية، فهذه المفاهيم تعد جوهر البوليفونية إضافة إلى البعد الحواري للكلمة، وحياد المؤلف والإيديولوجية الصياغية.

لذلك يسعى هذا المقال إلى إضاءة مصطلحي المداهنة والنفوذ المعنوي ومحاولة الوقوف عليهما في المنجز الباختيني الذي فصل فيه بين الرواية البوليفونية المنفتحة على أصوات ممتزجة ومتعددة والرواية المونوفونية أحادية الصوت، ومن ثمة كانت طرحنا السؤالين التاليين:

ما هي المداهنة وما قيمتها في الرواية البوليفونية؟

ما قيمة النفود المعنوي في تحقيق مبدأ الغيرية واستقلالية الشخصية الروائية؟

كيف نظر باختين إلى المداهنة والنفوذ المعنوي في معرض تحليله لروايات دوستويفسكي/Dostoïevski؟

تروم هذه الوراقة إذا معاينة المصطلحين للوصول إلى فهم مميزات وبنية الشخصية وخصائصها في الرواية البوليفونية، خاصة أن ميزة الشخصية في الرواية البوليفونية ترتبط ارتباطا وثيقا بسائر البنيات السردية الأخرى في التحليل الباختيني كالمؤلف والكلمة، فهي حلقات متسلسلة ومتصلة، عمل باختين على إبراز سمة كل منها انطلاقا من بنية النص البوليفوني ككلٍ لا تنفصل وحداته عن الأخرى.

2. المداهنة عند البطل والمفاهيم المجاورة لها:

المداهنة لغة: ورد شرح كلمة المداهنة في القاموس المحيط في قول الفيروزآبادي "داهن بمعنى نافق والمداهنة إظهار خلاف ما يضمر كالادهان، الغش" فمفهوم المداهنة في اللغة يحمل معنى النفاق والغش وتزييف الحقيقة وإضمارها.

2.2 المداهنة اصطلاحا: تعد المداهنة مصطلحا من المصطلحات التي توقف عندها باختين بالتعريف والشرح في حديثه عن سمات البطل البوليفوني حيث يعرفها قائلا: "المداهنة تجعل كل تعريفات البطل لذواتهم قلقة والكلمة فيها لا تتشبث بمعناها وهي مستعدة لأن تغير في آخر لحظة نغمتها ومعناها الأخير وكأنها حرباء". فالمداهنة في المنجز الباختيني متعلقة بحديث البطل عن ذاته، هذه الذات التي تظل مبهمة لا تستقر على صفة معينة، فهي تتأثر بالأحداث وتتطور وتغير من قناعاتها لدرجة تجعل منها أشبه بالحرباء التي تغير لونها في كل مرة.

يستطرد باختين قائلا :" إن المداهنة تجعل البطل مزدوج الدلالة ولا يمكن الإمساك به حتى لنفسه هو بالذات ومن أجل أن يشق طريقا إلى نفسه عليه أن يذلل طريقا طويلا، إن المداهنة تشوّه بعمق موقفه من نفسه " ،يلح باختين في حديثه عن المداهنة على ضرورة جعل البطل غير مفهوم حتى لنفسه وغاية ذلك أن يكون البطل غير جاهز في فكر المؤلف الذي يكون محايدا في النص، لأن ميلاد الشخصية في فكر الروائي يولد مع لحظة الإبداع فهو غير مفكر فيه مسبقا، لذلك يكون البطل مداهنا مراوغا يحاول البحث عن ذاته وقناعاته التي تتغير، شأنه في ذلك شأن الإنسان على أرض الواقع، تحدده القناعات وتحوله السياقات.

2 .3 المفاهيم المجاورة للمداهنة:

يتجلى من خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي أن للمداهنة كما هائلا من المصطلحات الأدبية المجاورة لها:

أـ الغموض /Ambiguïté:

يرى سعيد علوش في معجم المصطلحات الأدبية أن الغموض " طبيعة الخطاب اللغوي أو أي نظام دال يمتلك عند متلقيه أكثر من معنى ويستحيل تأويله بدقة ... كما يرجع سببه لتعدد القراءات والتأويلات والمقاصد" من خلال هذا التعريف يتقاطع كل من الغموض والمداهنة في فكرة تعدد الدلالة التي تمنع المتلقي من فك شفرة الخطاب وحصره في دلالة ثابتة وهذا ما يجعله منفتحا على القراءات المتعددة وعلى تعدد الأصوات، وهذا ما يؤكده باختين في معرض تحليله لرواية الإخوة كرامازوف حين يقول:""إن كل أبطال دوستويفسكي منحوا حكمة السماء و تأملوها ولدى كل واحد منهم أفكار عظيمة غير قابلة للحل، وإن كل واحد منهم يشعر بالحاجة إلى أن يجد حلا لأفكاره" . فالغموض يحيط بالبطل لأنه يمتلك عديدا من الأفكار الغامضة التي تبحث عن الحل هذه الأفكار التي تتفاعل فيما بينها رافضة الركون لحل يرضي قناعة البطل ويطلق عليها باختين مايسميه: الايديولوجية الصياغية، ويؤكد أنها أساس رؤية دوستويفسكي للعالم وتصويره له، وتتميز هذه الإيديولوجية بكونها تستغني عن عنصرين تتسم بهما سائر الايديولوجيات الأخرى، وهما الفكرة المعزولة {اليقينية}، والقناعات التي تقيم الفكرة صائبة أو خاطئة.

ويضيف باختين في إطار شرح مفهومها قائلا:" فهي لا تعرف الرأي المنعزل بذاته ولا الوحدة النظامية لأن الدلالة الملموسة فيها تندمج اندماجا كليا مع موقف الشخصية". بالتالي تكون المداهنة نتيجة للغموض الذي يحيط بالشخصية فأفكارها العميقة تجعل منها ذاتا فاعلة في حدود العمل الأدبي.

ب. التناقض / Contradiction: ورد في معجم المصطلحات الأدبية أن التناقض هو " الوقوع الدائم في الخطأ من وجهة المضمون الذي يعتبر كالحشو عند النطق لافتقاده الدلالة" فالتناقض من زاوية الفهم هذه مرتبط بجملة من الخطابات المنطوقة التي لا تقود المتلقي للوصول إلى الدلالة فتجعل مرسل الخطاب في حيرة سيكولوجية تؤثر على فهم المتلقي، الذي يجد تناقضا في المنطوق. ويرى سعيد علوش أن "خطأ التناقض لا يتولد عن علاقته بالأحداث ولكن عن علاقته بالكود اللساني، كمثال المرأة ليست المرأة هي الرجل ويعد التناقض هنا غير سيميائي". ويعرف محمد التونجي التناقض بوصفه: "اختلاف قضيتين بالسلب والإيجاب بحيث يقتضي لذاته صدق إحداهما وكذب الأخرى".

من خلال هذه التعريفات يتقاطع الغموض مع المداهنة في كون البطل يكون مداهنا إذا وقع في التناقض، لأنه يجعل القارئ في حيرة بين قضيتين إحداهما صائبة وأخرى خاطئة فيحتاج حينها إلى تحليل مواقف البطل المختلفة في النص حتى يصل إلى الحكم النهائي ويرتبط التناقض في الطرح الباختيني بفكر البطل حيث يقول :" تكتسب الفكرة بعد أن تفقد انجازيتها المونولوجية والنظرية المجردة... تعقيدا على درجة كبيرة من التناقض و تعددا حيا في وجوه الفكرة " فدوستويفسكي عمل على دمج التناقضات في الرواية ليصل إلى تعدد الأصوات لذلك قال فيه باختين :"إنه يبدو أنه واصل كل فكرة من هذه الأفكار البعيدة عن بعضها البعض ... إلى أن التقت جميعها في نقطة تقاطع حواري" وبذلك يكون التناقض مجاورا للمداهنة لأنه يجعل البطل في حيرة سيكولوجية قوامها تناقض الأفكار المحيطة به والتي ينقلها كما هي دون أن يقر صوابها من خطأها .

ج ـ الإيهام/Illusion: جاء تعريف الإيهام في معجم المصطلحات الأدبية كالآتي: "الإيهام عبارة عن إدراك لا يطابق الواقع بل يدفع القارئ المتفهم إلى الاعتقاد في وسط الرمز، وينتج عنه ابتكار عوامل تخييلية، ويحقق مصداقية قد تكون أقوى من الواقع".

فالإيهام قريب جدا من معنى المداهنة في المنجز الباختيني لأن البطل في الرواية البوليفونية يشبه العلامة في الدرس اللساني، خاصة عندما ينفصل الدال عن المدلول ويدخله شبكة التأويل، لأن البطل كلما كان غير منجز كلما جعل القارئ ينتج مجموعة من الأحكام غير المنتهية التي تمكنه من قراءة البطل بعمق عبر تحليل مواقفه والوقوف على أسرار تناقضاته. وميزة بطل دوستويفسكي اللاإنجازية مثلما أشار باختين في تحليله لموقف بطل رواية "الإنسان من داخل القبو"، إنه بطل يفكر أكثر من أي شيء آخر حول ما يفكر عنه الآخرون، إن الوعي

الذاتي للبطل يعيش حالة اللا إنجازية واللاإكتمالية بسبب هاجس القلق الذي يعتريه والشك والارتياب الذي يوقعه في الإيهام، فما يحدث في وعيه يؤكد استقلالية البطل الداخلية ولاانجازيته وعدم استقراره.

النفوذ المعنوي ودوره في بناء الشخصية المستقلة في الرواية البوليفونية.

3 ـ1 النفوذ لغة: جاء في المعجم الوسيط:" النفوذ القوة والسلطان فيقال فلان ذو نفوذ وسلطان ومناطق النفوذ البلاد الضعيفة التي تبسط عليها الدول الكبرى سلطانها ". فالنفوذ في اللغة مرتبط بالقوة والسلطة ويبدو التعريف اللغوي مقاربا لما يقصده باختين حيث يجعل الشخصية تمتلك السلطة وتمتلك الحرية والاستقلالية في حدود العمل الإبداعي.

3 ـ 2 النفوذ المعنوي في المنجز الباختيني: اعتمد باختين في تحديده لمفهوم النفوذ المعنوي للبطل في كتابات دوستويفسكي على تصويب آراء عديد من الدارسين ممَّن تتنوع مشاربهم الثقافية، خاصة أن التنوع في نصوص دوستويفسكي جعل كل ناقد منهم يجد ضالته وبالتالي صار الحديث عن دوستويفسكي حديثا عن دراسات متشعبة ذات توجهات فكرية وفلسفية مختلفة، هذا التنوع الذي يجعل دوستويفسكي ينقل عبر أبطاله جوا من الجدال والصراع، إذ يتمتع كل بطل بالنفوذ المعنوي الذي يمكنه من إبراز مفاهيمه أو صقلها وتطويرها استنادا إلى مفاهيم سائر الأبطال.

وبالتالي لا ينتج دوستويفسكي عبيدا داخل نصوصه يسيرهم تبعا لإرادته، بل ينتج أبطالا لهم وجهات نظر وأفكار خاصة بهم. ولا يتدخل في شؤون أبطاله، وإنما يكون مسجلا فقط لما يدور من أحداث، فحتى أبطاله يمكن أن يخالفوه الرأي، بل حتى أنه يمكنهم الثورة في وجهه. فأبطاله "...أناس أحرار مؤهلين للوقوف جنبا إلى جنب مع مبدعهم، قادرين على أن لا يتفقوا معه، بل حتى أن يثوروا عليه".

إن البطل في روايات دوستويفسكي له كلمته الخاصة ويتمتع بالاستقلالية، فهو متحرر من سلطة المؤلف، وبناء عليه يسعى الأبطال إلى تأكيد ذواتهم، ما يعزز النزعة الانفصالية الخاصة بوعي البطل، ونزعة انطوائية داخل عمله الشخصي. لأن البطل أصبح ذاتا فاعلة وخرج من كونه موضوعا، وهو ما يعزز فكرة المغايرة والغيرية في الكتابة الدوستويفسكية.

فاستنادا إلى نفوذ البطل المعنوي تصبح طريقة تقديم السرد في روايات دوستويفسكي مختلفة عن الروايات ذات البناء التقليدي، فالمادة التي تقص وتخبر وتصور، هي الكلمة التي تتشاطرها ذوات مختلفة، لكنها متساوية الحقوق فلا يهيمن فيها طرف على الآخر، ولا يستعلي فيها فكر على فكر، هي عبارة عن إيديولوجيات تتصارع وتدافع عن تفاصيلها حتى النهاية.

هذا التعارض والاختلاف في المادة الحكائية يجعل البنية السردية ذات خصوصية معينة تمنحها شيئا من الجدة بوصفها تخالف ذلك التجانس الذي كان يطبع عناصر البنية السردية في النمط المونوفونيMonophoniqueلأن النمط الجديد أضحى عبارة عن خليط من مواد متنافرة وهو ما يقول عنه تودوروف التضاد والموقف المضاد للفكرة والاختلاف، ويتحدث باختين قائلا: "إن كثرة الأصوات وأشكال الوعي المستقلة وغير الممتزجة ببعضها البعض وتعددية الأصوات الأصلية للشخصيات الأصلية كاملة القيمة كل ذلك يعتبر الخاصية الأساسية لروايات دوستويفسكي، ليس كثرة المصائر داخل العمل الموضوعي هو ما يجري تطويره في روايات دوستويفسكي، بل أشكال الوعي المتساوية الحقوق مع مالها من عوالم... إن للأبطال كلماتهم الشخصية ذات القيمة الدلالية الكاملة" .

أعاب باختين –في إطار حديثه عن النفوذ المعنوي– النظرة السطحية للنقاد الذين درسوا دوستويفسكي قبله، والذين لم يقفوا على النفوذ المعنوي لأبطال دوستويفسكي استنادا للفروق بينها وبين طبيعة الأبطال في الفكر المونوفوني وإنما اقتصروا على دراسة الجانب الموضوعاتي لتلك الأفكار المختلفة، ونظروا إلى الأبطال بوصفهم حالات عقلية، وصنفوهم في خانة الكتابة التقليدية القائمة على التفلسف، ما يجعل الأبطال عبارة عن حالات مرضية ..من بين هؤلاء النقاد " "سار روزانوف/ Rosanov Sarr" ، "فولينسكي/ Volynsky " ، شيستوف/ Shestov " وآخرون، يقول :"ولهذا السبب فإن جميع الدراسات الكبيرة المكرسة لدوستويفسكي التي سارت في طريق إسباغ الطابع المونولوجي الفلسفي على أعماله الأدبية ،هذه الدراسات التي لا تقدم إلا القليل عن الخاصية البنيوية المصاغة من قبلنا، الخاصة بعالمه الفني حقا إن هذه الخاصية هي التي ولدت كل تلك البحوث" .

كما يرجع باختين بداية النقد الواعي لأعمال دوستويفسكي إلى "جيسلاف ايفانوف/ Gislav Ivanov الذي ربط إبداع دوستويفسكي بالأبطال الذين يسعون إلى تأكيد وعيهم وتقديمه بوصفه وعيا يخصهم ولا يخص مؤلفهم، ومنه يحدث ما يسمى بالنزعة الانفصالية في الوعي، تبرز في شكل مجموعة من الأفكار المتناقضة في النص، والتي لا تلتقي في مفهوم يؤلف فيما بينها شأن السرود القديمة، لكن ما يعيبه باختين على جيسلاف ايفانوف أنه ربط هذه الثيمة بالجانب الديني الأخلاقي العقائدي، لذلك ابتعد عن طرح التعدد الصوتي الذي تتميز به الرواية.

كما قاد استقلال الشخصية ونفوذها المعنوي الباحث إسكولدوف/ Escoldovإلى مساءلة المضمون الذي يجعل الأبطال يختلفون في مسلماتهم الفكرية، معناه أن المضمون هو من يساعد على تناقض الطروحات، ومن بين المضامين التي تتيح توفر هذه الخاصية "الجريمة "التي تسمح بإثارة النقاش حول الحياة بصفة عامة، ثم النظر في الأجواء والظروف التي صنعت المجرم والأسباب التي تسببت في حدوثها، وكذلك موقف من يجهل تلك المعطيات، ويركز باختين على الجريمة بوصفها سلوكا منحرفا، كما لاحظ اسكولدوف من خلال هذه المضامين

الاستقلالية المدهشة لأبطال دوستويفسكي الذي بالغ في النفاذ إلى أعماق شخصياتهم وتقديمها دون أن يتدخل في شؤونها.

إلا أن ما يعاب على اسكولدوف أنه عاد ليسبغ الطابع المونولوجي على دوستويفسكي عندما ربط نزعة أبطاله بعقيدته.

كذلك توصل جروسمان/ Grossmanإلى نتيجة هامة في دراسات إبداعات دوستويفسكي حيث يرى أنه يخرق الوحدة العضوية للمادة، وينتج مادة جديدة تقوم بصهر جملة من المواد المتنافرة في كيان جديد يمثله الرواة، ويقصد بذلك التنوع الكلامي والتباين الأجناسي في الرواية، فدوستويفسكي استطاع أن يتوغل ويسبر شخصية المثقف العادي المنحدر من عامة الشعب، بالتالي يشكل دوستويفسكي رواية تقوم على تفاعل التنوع الروحي داخلها، وهذا خرق لقانون الفن السائد آنذاك القائم على التجانس والوحدة بين عناصر البنية، ويحاول صياغة رواية من مواد خام مصدرها المجتمع، حتى يجعل نغمته وأسلوبه شخصيين.

ويؤكد باختين على أهمية هذا الطرح لكنه يعده غير كاف، لأن الوحدة والتنوع والمواد المتنافرة غير كافية لبناء رواية متعددة الأصوات، إذ هناك روايات قبل دوستويفسكي قائمة على التنوع، لكنها لا تبرز بوصفها مستقلة بل تبقى تحت هيمنة وحدة الرؤية والأسلوب وهيمنة فكر الراوي الذي يطوعها ويكيفها حتى تتلاءم مع أفكاره، في حين دوستويفسكي يجعل هذه المواد المتنافرة عوالم قائمة بذاتها تصنع نفسها، وكأنه قُدِّر لها ذلك، فيُفتَقَدُ أسلوب الراوي ولا نشعر به، لذلك يقارن باختين دوستويفسكي بإنشتاين لأن كليهما ذو نظرة معقدة تتوافق والكون المعقد، فهما بمثابة مجموعة من عقول مختلفة يحملها رأس واحد.

يثير جروسمان كذلك قضية أخرى إلى جانب التناقض، الحوار وبالضبط الحوار الدراماتيكي، فيقول : "يقوم دوستويفسكي بصهر ودمج العناصر المتعارضة، إنه يتعدى بقوة القانون الأساسي لنظرية الفن وتنحصر مهمته في تدليل أعظم عقبة تعترض طريق الفنان خلق كيان فني موحد متكامل من مواد متنافرة وغريبة عن بعضها البعض، ولهذا نجد سفر أيوب وإلهام القديس يوحنا والأناجيل، وكلمة سيمون اللاهوتية، تندمج بصورة فريدة مع النكتة والمحاكاة الساخرة " Parody"، والمشاهد السوقية المبتذلة، كل ذلك ينصهر في حمأة أسلوبه الإبداعي ويندمج في مركب جديد يطبع نغمته وأسلوبه الشخصيين" .

لكن باختين يعتبر ذلك من أكثر الآليات مونوفونية بوصفه نابعا من ذات واحدة، لذلك فهو إن أدى دورا في الرواية المتعددة الأصوات فلن يعدو كونه دورا ثانويا، إذ يرجع ذلك إلى أن المواد المتنافرة منبعها الشخصيات المستقلة ذات النفوذ المعنوي وليس المؤلف دوستويفسكي.

وحلل باختين آراء أوتوكاوس/ Otto Kaos الذي يشير إلى تعدد المواقف الأيديولوجية المتعادلة النفوذ، إذ تجد كل من هذه الشخصيات ما تستند عليه، فهو يجعل من دوستويفسكي أشبه برب المنزل الذي يتحاور مع ضيوف مختلفي التفكير، مع المحافظة على نفس التوتر القائم بينهم، فيصبح حسب كاوس فكر دوستويفسكي ذا طاقة معادلة لاستيعاب الرأسمالية العوالم المختلفة، إذ تجعلها جميعا تتصارع تحت وطأتها بوصفها نظاما جامعا لهذه العوالم التي تتعايش بشكل أعمى داخل النظام، وبشكل غير مفكر فيه.

لذلك يجعل باختين الرواية البوليفونية مرتبطة بالنظام الرأسمالي الذي ظهر في روسيا بطريقة مفجعة، حتمت على المجتمع إعادة تكييف ذاته مع نظام جديد ومعطيات جديدة، فالرأسمالية في روسيا كانت الحرب التي يقودها كل فرد ضد الآخر، فهي تشبه إلى حد بعيد قانون الغاب وقانون الطبيعة القائم على بقاء الأقوى.

غير أن باختين يكشف كيف أهمل كاوس الحديث عن تكييف الرأسمالية في قالب فني، ولم يتحدث عن قيمة العمل الأدبي الذي يصوغ الواقع والمعطيات في قالب أدبي فني وفي شكل حكاية تنم عن إحاطة دوستويفسكي الأدبية بالمعارف المختلفة أولا، وبراعته ثانيا في جعلها ضمن مادة حكائية مشوقة.

وفي معرض الحديث عن النفوذ المعنوي الذي يخلق شيئا من التنافر في بنية النص، رأى باختين أن كوماروفيتش/Komarovich حاول الكشف عن صلة ما تربط إبداعات دوستويفسكي خارج الرواية الواحدة والمحور الواحد، فهو بالتالي حاول الكشف عنه بطريقة مونولوجية، يسعى من خلالها إلى البرهنة على أن دوستويفسكي تحت وطأة الفعل الإرادي يبني مجموعة متنافرة ومختلفة، لهذا يرى باختين أن خطأ دوستويفسكي يكمن في الجري وراء إعادة توحيد عوالم مختلفة منتهاها في الأخير هو الأنا الإنسانية، هذه الأخيرة التي يكشف عنها الاختلاف أكثر من الوحدة والانسجام .

ومن النقاد الذين لفتوا انتباه باختين كذلك انجلجاردت/ Engelgardt الذي يرتكز فهمه للنفوذ المعنوي على استكشاف العوامل الاجتماعية والثقافية التي تنتج فكر بطل روايات دوستويفسكي، هذا البطل الذي يصبح وجوده داخل العمل عبارة عن إيديولوجيا تتمحور بطولته داخل العمل في إرساء إيديولوجيته التي تعجله موجودا بوجودها فهو لا يتجلى إلا عبرها، ويجري تفسيره للجدل الموجود في الرواية على أنه من روح واحدة، معناه أن الجدل عادي منجزٌ سلفا من قبل المؤلف.

إلا أن باختين يرى عكس ذلك كون هذا التناقض الموجود في الرواية يجري حلّه عبر الجدل الفكري، فليس الجدل هو أساس البناء الفني لروايات دوستويفسكي، ودليله في ذلك أن حلّ هذا التناقض لا يتم على مستوى مونولوجي للفرد بل يتم حله جماعيا، أي وفق تصور اجتماعي محض وهو ما يجعل دوستويفسكي ذا نظرة عميقة ومتشعبة في الآن نفسه، يفهم من خلالها التناقض الموجود بين طبقات مختلفة من الناس، لذلك يقول عنه باختين

أنه استطاع أن يرى العالم ويصوره، هذه الرؤية تجعله ينتج أبطالا بشرا داخل العمل الفني، وليس شخصيات فنية لذلك يعتبر دوستويفسكي موهوبا جدا لامتلاكه القدرة على فهم كل تلك الأصوات مرة واحدة .

ومن بين القراءات كذلك قراءة لونا جارسكي/Luna Jarsky الذي كان فهمه منصبا على الكيفية التي ينتج بها دوستويفسكي أصواتا متناقضة، تجسد المشكلات الحياتية التي تحدث في المجتمع، والمدهش في الأمر أن الروائي نفسه ينتظر مع قارئه ما ستسفر عنه المواجهة والنقاش، فالأحداث تصنع نفسها في معزل عن دوستويفسكي ويعرض مقارنة بين تعددية الصوت عند هذا الأخير وشكسبير، فالاختلاف يكمن في كون شكسبير ينفلت منه الانفصال عن أصوات أبطاله نتيجة خضوع الكل لهيمنة طريقة بناء الحبكة على فكر شكسبير، فيكيف الجميع مع ما يتوافق معها ويخدمها عكس دوستويفسكي الذي يحافظ على الانفصال إلى آخر لحظة .

فوحده دوستويفسكي حسب باختين يتمتع بالانشطار في شخصيته، هذا الانشطار الذي يمكنه من أن يكون ذواتا مختلفة في عمله، وهذا ما يؤكده قول كيربوتين/ Kérbutine الذي يؤكد فيه أن دوستويفسكي يملك القدرة على أن يلتبس أرواحا مختلفة، وبذلك يكون كيربوتين قد أقنع باختين في فهم دوستويفسكي عبر قراءته للجانب السيكولوجي.

ما يلاحظ من خلال نقد النقد الباختيني أن مقولة النفوذ المعنوي للبطل هي جوهر البوليفونية في روايات دوستويفسكي هذا النفوذ المعنوي الذي يتحقق للفنان الذي يتسم بالعبقرية والقدرة على الانشطار ذواتا مختلفة في العمل الفني، كما نكتشف أن باختين يقف عند المصطلحات الجزئية بالشرح والتفصيل لأنها ذات دلالات عميقة تقتضي البحث والتقصي.

5. خاتمة:

من خلال ما تقدم يتضح أن المفاهيم والمصطلحات التي أفرزها باختين في معرض حديثه عن روايات دوستويفسكي، ذات دلالات عميقة تحتاج للبحث والإضاءة، لذلك لا يجب إغفالها أثناء التطرق للمصطلحات الكبرى كالبوليفونية والحوارية، لأن هذه المحطات الكبرى من التنظير الروائي الباختيني غيبت مفاهيم جزئية أطال فيها باختين الشرح والتفصيل للوصول إلى المنبع الفني الحقيقي في الرواية البوليفونية.

كما يتضح أن المداهنة التي ألحّ عليها باختين ترتبط ارتباطا عميقا بفلسفة الإنسان المعاصر الذي صار لا يفهم الواقع المحيط به، لذلك تعجز الرؤية القديمة المتمثلة في عنصر المحاكاة والنظرة السطحية للشخصية بوصفها بناء فنيا عن تقديم الصدق الفني للإنسان المعاصر، لذلك تجعل المداهنة البطل في الرواية أشبه بالإنسان الذي يتخبط في جحيم الواقع، ويسعى لأن يستعيد ذاته المفتقدة نتيجة تأثير الطبقات الفوقية في بناء شخصيته.

كما يكشف النفوذ المعنوي عن فلسفة التحرر من كافة القيود الفنية كهيمنة الموضوع والحدث على المؤلف، الذي كان يطوع الشخصية لتتلاءم معهما، ليفتح بذلك المجال أمام الأبطال ليكشفوا عن أفكارهم ويدافعوا عنها وفقا لزاوية رؤية خاصة بهم، تكون أكثر عمقا وأكثر كشفا للحقيقة التي يعمل الفنان على إبرازها دون قيود ودون خوف من الخطابات الفوقية التي كبحت جماح الفن لعقود طويلة.

قائمة المصادر والمراجع:

وفيها عناصر ثابتة حددها جنيت بثلاثة عناصر الزمن والصيغة والصوت. للمزيد من الفائدة العودة إلى كتاب:

Gérard Genette ; Figure 3 ; seuil ; 1972

ميخائيل ميخايلوفيتش باختين ولد في 5نوفمبر 1895 بمدينة أوريل، فيلسوف روسي ومنظر ومفكر اهتم بالثقافة والفن الأوربيين التحق بكلية التاريخ والفلسفة بجامعة نوفروسييسك ثم غادرها ليلتحق بجامعة سان بيتر سبورج اكتسب ثقافته عبر دراسة الفلسفة الألمانية والأدب الروسي توفي 7مارس عام 1975 ترك عديدا من المؤلفات النقدية كالماركسية وفلسفة اللغة، جمالية الإبداع اللفظي، الفرويدية...، ينظر ميخائيل باختين: الفرويدية، تر: شكير نصر الدين، رؤية للنشر والتوزيع، ط/2015،1، ص ص 12-14.

من بين البحوث العربية التي تناولت أعمال ميخائيل باختين النقدية نذكر على سبيل المثال لا الحصر: محمد برادة في كتابه الرواية العربية ورهان التجديد وكذا ترجمة كتاب" الخطاب الروائي لميخائيل باختين"، مؤلف أنور المرتجى: ميخائيل باختين الناقد الحواري. حياة أم السعد في كتابها" تداولية الخطاب الروائي من انسجام الملفوظ إلى انسجام التلفظ" وكتاب "النقد والخطاب"، مؤلف محمد بوعزة في "حوارية الخطاب الروائي."

آثرنا استعمال المصطلح المعرب بوليفوني ولم نستعمل مصطلح التعدد الصوتي لأننا وجدنا سياق استعمال باختين للمصطلحين مختلف، وإن كانت الترجمة العربية لكتاب شعرية دوستويفسكي تستعمل المصطلحين بالمعنى نفسه.

مجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادي: معجم القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 2005، ص: 1197.

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، تر: جميل نصيف التكريتي، مراجعة: حياة شرارة، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، ط1، 1986، ص: 340.

المرجع نفسه، ص: 330.

سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت وسوشريس، الدار البيضاء ط1، 1985، ص: 158.

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي: ص 123.

ينظر: المرجع نفسه: ص 131.

المرجع نفسه ص 132.

إذا كان قد شاع استعمال مصطلح "فاعل"في الدراسات السردية السيمائية نسبة إلى غريماس ويقصد به المفهوم المجرد المشتق في اللغة الفرنسية من اللفظ .action وتعني الفعل أو العمل ...والفاعل يمكن أن يتطابق والشخصية ويمكن أن تجتمع شخصيات متعددة لتكون فاعلا واحدا. يراجع: محمد القاضي وآخرون، المرجع السابق. ص ص 304، 305. إلا أن باختين أورد ذلك قبلا في حديثه عن البطل كذات فاعلة، لأن البطل يبني ذاته لا من كلام الآخرين ولا من التحديدات المحايدة ولكن من كلمة البطل عن نفسه هو بالذات هو حامل الكلمة الكاملة القيمة وليس عنصرا صامتا.

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي: ص: 218.

المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

محمد التونجي: المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1999،2،ص:285.

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ص 126.

المرجع نفسه: ص: 130.

سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ص: 723

المرجع نفسه: ص89.

إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية مصر، مج 1، ط4 2004 ص :939.

اعتمد باختين في كتابه شعرية دوستويفسكي على عدد من الروايات التي كتبها هذا الروائي من بينها الجريمة والعقاب التي نالت أكبر قسط من الدراسة، بالإضافة إلى رواية الإخوة كارامازوف، والأبله، وحلم إنسان تافه. الإنسان داخل القبو

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي ص10 .

- ينظر : المرجع نفسه ، ص ص : 17- 18.

- المرجع نفسه، ص ص: 10- 11.

المرجع نفسه، ص: 15.

- المرجع نفسه، ص : 22.

ينظر: المرجع نفسه ص ص: 16- 22.

ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 27 – 30.

ينظر: المرجع نفسه، ص ص 32- 33.

ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 33- 40.

ينظر: المرجع نفسه، ص ص: 47 – 54.